رحلة إلى الغد مع توفيق الحكيم

حاتم نصر فريد

المقدمة

إذا أحس أحد من خلال ما أكتب هذه المرة أن إعجابي ظاهر بالكاتب والمفكر المصري الكبير توفيق الحكيم . فهذا الإحساس صحيح ، لأني لا أخفي هذا الإعجاب . . ولا أحاول . . إنما أعترف به منذ اللحظة الأولى . ولا أخرج في ذلك . . فللدى الأسباب . والإعجاب يختلف عن الحب . .

فيما عن نستطيع أن نمارس الحب في خيبة العقل . فإن الإعجاب لا يمكن أن يحدث بعيدا عنه . . لأن الإعجاب لابد أن تكون له أسبابه المنطقية . وإن لم يتبع ذلك بالنسبة لتوفيق الحكيم . من وجود أشياء أخرى في إعجابي به لا تدخل من باب العقل ، وإنما تنساب من خلال المشاعر .

باختصار شديد فإن إعجابي بتوفيق الحكيم هو مزيج من الإعجاب ومن الحب .

وتوفيق الحكيم هو الرجل الثاني من جيل العمالقة الأول . ذلك الجيل العظيم الذي ضم عباس محمود العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل . وغيرهم . ولذا تولد في عقلي منذ سنوات عديدة مضت . رغبة شديدة بالالتقاء به عن قرب . بعد أن التقيت به وعايشته وتعلمت معه عبر صفحات كتبه الشهيرة .

ولم يكن لقائي به سهلا ميسورا . .

لقد حاولت ذلك عدة مرات . وفي كل مرة أعترف بأني كنت أفعل مناسبة أو سببا للقاء . وفي كل مرة كان يفلت مني . إلى أن حدث أني كنت على موعد مع نجيب محفوظ والدكتور حسين فوزي ذات يوم قبل ست سنوات مضت . وكان مكان اللقاء هو : مكتب توفيق الحكيم بمبنى الأهرام . تلك الحجرة التي هي ملتقى كبار كتابنا ومفكرينا .

ولست أدري إذا كنت أنا الذي ذهبت مبكرا عن موعدي أم أنهما - نجيب محفوظ وحسين فوزي - قد تأخرا عن موعدهما . فقد ذهبت ولم أجدهما . ولكني وجدت توفيق الحكيم جالسا وحده فوق كرسيه المتحرك في حجرة مكتبه شاردا بفكره . ولا أدري إلى أين كانت ذاهبة الأفكار وصاحبتها وأنت .

وهكذا وجدت نفسي فجأة . وبلا سابق موعد . وجها لوجه معه . مع : توفيق الحكيم !

شعرت وقتها بأني أعيش لحظات من صنع القدر . فبدأت أرتب الأفكار في رأسي بسرعة . وأستجمع كل ما عندي من شجاعة العقل وباقة القول . وفتحت الحوار معه . وكان على النحو التالي

- فرصة سعيدة جدا هذا اللقاء الذي صنعته صدفة خير من ألف ميعاد . . كما يقولون ! . . كانت رائعة جدا سلسلة مقالاتك الأخيرة ، حوار مع الكوكب . . لقد كانت قطعة فلسفية أدبية تنبض بالواقعية في إطار من الإبداع والخيال . لقد قفزت من خلالها العديد من القضايا والحوار . .

توفيق الحكيم - (لا يرد)

- تصور أن هذه المقالات شجعتني هذه الأيام على البدء في كتاب جديد فكرت فيه منذ فترة . وهو عن مزاج الإنسان . ولكنه في صورة خيالية أحاول فيها أن أجعل المزاج هو الذي يكلم ويوجه حديثه للإنسان . كما فعلت في سلسلة مقالاتك مع كوكب الأرض . إنها محاولة جديدة لمزج العلم بالأدب . ما رأيك ؟ يبدو أنك مشغول هذه الأيام بعمل رائع و . .

توفيق الحكيم (مقاطعا) : ماذا تريد ؟ . .

- دون أن أحاور . أريد أن أقرأ عقلي وفكري بأدواتك العميقة وأفكارك المتجددة . فأنا واحد من الجيل الذي تأثر كثيرا بك و . .

توفيق الحكيم : طيب هات ٢٠٠ جنيه . . ؟

- لماذا ؟

توفيق الحكيم : لأن الكلام الذي ستقوله لك : يمكنك أن تكتبه وتنشره في أية صحيفة عربية وتتقاضى عنه مبلغا لا يقل عن ٢٠٠ جنيه . هات بقى ٢٠٠ جنيه . . ؟ !

هكذا كان لقائي الأول معه . . ؟ !

ثم مضت شهور وشهور

وانتهزت مناسبة أخرى ، واتصلت به تليفونيا في مكتبه . وجاء صوته الذي لا أخطئه أذني على الطرف الآخر للتليفون قائلا

توفيق الحكيم : مسافر ولن يعود قبل شهور .

- من ميادلك ؟

توفيق الحكيم : أنا سكرتيره . . ؟ !

ولم اليوم التالي ذهبت بنفسي إلى الأهرام . وعرفت أنه موجود وليس مسافرا . فاتصلت به تليفونيا . وتعرف سماع صوته بأدنه قائلا : أهلا يا أستاذ توفيق . كيف أحوالك . أرجو أن تكون بخير وصحة .

توفيق الحكيم : الحمد لله .

- هل تأذن لنا في لقاء في الوقت الذي يناسبك ؟

توفيق الحكيم : من الذي يتكلم ؟ ؟

عرفته بنفسي .

توفيق الحكيم : الله . ألم أقل لك أمس إني مسافر ؟ . أنا مسافر يا أبني ! ! !

وأدركت أن السفر سوف يطول . ؟ !

ومضت شهور أخرى عديدة .

ولي أحد معارضي فإن مصر العظيم صلاح طاهر . التقيت به مرة أخرى مصادفة أيضا . ولكن هذه المرة يبدو أن مزاج الألوان الشاحر على اللوحات الزاهية لفرشاة الألوان صلاح طاهر قد أضفى جوا رومانسيا خلابا . تسلل لفحاته عبر الشاعر والوجدان . وأحببت أتأمل توفيق الحكيم وهو يخلق مع الألوان . يحوم حولها ويغرس فيها . . ؟

وبعد هذه الرحلة الشاحرة مع الفرشاة والألوان أدركت أن الفرصة مواتية لفتح الحوار وبالفعل خلق ما أردت .

وبدأ الحوار . .

وتعددت اللقاءات . وأصبحت أتردد عليه من وقت لآخر .

وأصبح توفيق الحكيم بالنسبة لي واحة خضراء نهرب إليها النفس من وقت لآخر . بعد رحلة قاسية وسط صخور الحياة ورمالها الملتهبة وحزيرة أمان ينظر على ضفتيها العقل . ويتطلق من فوقها الفكر متأملا متحددا إلى كل الجهات .

لاحظ ذات مرة يقول : إنك واحد من

المهندس بالعلم والتحديات التي أحدثتها الثورة العلمية ، أريد أن أعرف – في رأيك – إلى أي مدى ذهبت هذه التغيرات في تأثيرها ؟

ولم أعرف – استحياء – ماذا أقول للرجل الذي أعد فكره بالتأثير في جيل كامل ، بل أعد إلى رحاب الفكر الإنساني كله

وبعد لحظات من التفكير قلت له : إن ذلك موضوع طويل ومتشعب . أرجو أن تأذن لي بعض الوقت حتى أعد قراءاتي وترتيب أفكاري ، لكي أستطيع أن أعد ردًا متكاملا يليق بتقديره إياك . فالعلم أثر في كل شيء في حياة الإنسان اليومية المعاصرة ، بل امتد إلى فكره وقيمه ومثله العليا ، حتى الأفكار الأساسية التي قامت عليها المجتمعات وامتدت القرون طويلة ، ويستطيع أن نسميها « الروابط الروابط » ، هذه الأفكار هي الأخرى تعرضت تحت تأثير الثورة العلمية الحديثة لهزات عنيفة

إن الموضوع طويل ومعقد . . !

ثم قلت له مداعبا : كان مفروضا أن أبادرك بهذا السؤال – تفضلا عن أني صحفي وجزء من مهنتي هو توجيه الأسئلة وتلقي الإجابات ، فقد قرأت منذ سنوات كتابك الرائع « رحلة إلى الغد » الذي قدمته منذ حوالي ربع قرن أو بالتحديد في سنة ١٩٥٧ . وفيه تخيلت شكل مجتمع المستقبل بعد ٣٠٠ سنة ، أي حوالي سنة ٢٣٠٠ ميلادية . لقد بلغ من ولعي الشديد بهذا الكتاب ، أني أطلقت اسمه على برنامج يومي كنت أكتبه للإذاعة ، هل تأذن لي بعد ذلك في توجيه نفس السؤال إليك ، وإن كنت قبلا أريد أن أعرف لماذا تفكر في هذا الموضوع الآن ؟

قال توفيق الحكيم : إني أفكر هذه الأيام في هذا الموضوع ، لأن العلم أثر في حياة الإنسان الحديث وحاضره من كل جانب ، ولعل لا نستطيع أن نقف بمعزل عن تلك الثقافة الجديدة التي تهب علينا رغما عن العالم المتقدم كأنها الأعاصير العاتية ، بل لابد لنا من تركيبة جديدة تكون مزيجا من تراثنا الأصيل مع عناصر العصر الحديث الذي نعيش فيه ، حتى نكون عربا معاصرين ، نعيش أحداث العصر ولا نكون نحن عنه ، وفي نفس الوقت لا ننسى أصولنا ولا ننقطع عن جذورنا .

ويستطرد توفيق الحكيم : إن البشرية سوف تواجه مع سنة ٢٠٠٠ تحديات أخرى ضخمة بالغة التعقيد . فمشكلة الطاقة مثلا قد كثر الحديث عنها في السنوات الأخيرة ، كخطر يهدد التقدم الإنساني إذا لم يتم التوصل إلى إيجاد حل لها . أما في المستقبل القريب فالمؤكد أن موارد جديدة للطاقة سوف تظهر وتستخدم مثل الطاقة الشمسية والطاقة النووية وغيرهما من الطاقات الناتجة عن التكنولوجيا الحديثة ، وهذه الموارد الجديدة للطاقة ، والتي لم نستخدم في حياتنا استخداما واسعا ، من المؤكد أنها ستؤثر في أسلوب حياة الإنسان تأثيرات بالغة ، وتؤثر في حياته اليومية بصورة مباشرة ، بل سوف يمتد هذا التأثير إلى أفكاره وقيمه ومعتقداته . .

قلت له : وهل تعتقد أن اعتماد الإنسان المتزايد على الطاقة والآلة يمكن أن يؤدي في المستقبل إلى خلط معين من الحضارة ، يستطيع أن نطلق عليه حضارة الإنسان الآلي ؟

قال توفيق الحكيم : لا مندوحة أن الاعتماد المتزايد على التكنولوجيا الحديثة التي ذهبت في تأثيرها إلى مدى بعيد في حياة الإنسان ، لا شك أن ذلك سوف يفضي على مورد آخر للطاقة الضائعة في حياتنا المعاصرة هو الطاقة الناتجة من عضلات الإنسان . فالإنسان الحديث أخذ يعتمد على القوة الميكانيكية للآلات في كل شيء حتى أبسط الأشياء ، وهذه القوة الميكانيكية تحتاج إلى طاقة لتأدية العمل ، ويكون نتيجة ذلك تضاعف استهلاك الطاقة بصورة رهيبة ، حتى في البلاد النامية بعد أن استهلاك الكهرباء – وهي صورة من صور الطاقة – يزداد بسرعة . وسوف يتضاعف عدة مرات إلى نهاية هذا القرن

معنى ذلك أن الطاقة البشرية تتراكم باستمرار ، ولا تعمل إلا في نطاق ضيق جدا ، بينما تحل محلها طاقة الآلة . وتكون نتيجة هذا الكسل البشري الذي ليس له مثيل في التاريخ . هي أنا ينبغي إن نتوقع أن حضارة القرن القادم سوف تكون حضارة الإنسان الآلي

وتخللت لحظات صمت يطلق فيها المفكر الكبير

بصره حوله . كأنه يعبر بها الزمان والمكان إلى قرن آخر لم يأت بعد . ويستطرد قائلا : إنه لأمر مرعب أن نتصور أن حضارة القرن المقبل سوف تكون حضارة الإنسان الآلي . إن حضارة كهذه تأس ليس فقط في الأسبوعات الرهيبة للموارد والطاقة والموارد الطبيعية . بل في تهديد سلامة النوع البشري بكل فضائله الحميدة ورذائله الخبيثة

يعني أن العمل الآن على تكوين إنسان القرن القادم تكوينا جديدا يكفل له الاعتماد على الآلة في حدود الاعتدال التي تحجز قواه الطبيعية عن أدائها ، حتى لا تسيطر عليه الآلة وتقيده ، بل وتهدد سلامة جسمه البشري ذاته .

* * *

ولم يخف تأثير الثورة العلمية عند حد التأثير في حياة الإنسان وقيمه ، بل إنه امتد – فيما أعتقد – إلى الأفكار الأساسية التي كان النظام الاجتماعي يسيطر عليها مسيطرة عظيمة . وشهدت المجتمعات المتقدمة ، وبالذات في أوربا وأمريكا الشمالية ، اهتزازات واضحة في تلك الأفكار ، وأهمها الدين .

لقد أصبح الدين – فيما أظن – في حاجة إلى اجتهادات جديدة توائم بين المعتقدات الدينية السائدة والحقائق العلمية الجديدة المتفجرة كالقنابل كل يوم وأظهرها غزو الفضاء واقتحام أسرار الكواكب والنجوم ، والتطلع إلى التحكم في الكائنات عن طريق الهندسة الوراثية ، بل السيطرة على الحياة ذاتها . .

تلك هي – باختصار شديد – مشكلة الدين في عصر الثورة العلمية الحديثة ، كما أتصورها . . !

ثم قلت للمفكر الكبير توفيق الحكيم : إذا كنت قد استطعت أن أبلور المشكلة على النحو السابق ، واتفقنا على ذلك ، فكيف يمكن – في رأيك – أن تقوم العلاقة بين الدين والعلم ؟

قال توفيق الحكيم : إني أتفق معك في أنه لابد من اجتهادات جديدة توائم بين المعتقدات الدينية والعلم الحديث ، بل إن هذه القضية يجب أن تكون في قائمة المسائل المتعلقة بسنة ٢٠٠٠ . وقد يكون لكلمة « الدين » وكلمة « الله » عند بعض رجال العلم من المعنى والمدلول ما يختلف عما عند رجال الدين ، وخاصة في القرن الماضي عندما اتجه العلم إلى الاتجاه المادي الذي أطلق عليه المادية العلمية ، معتمدا على نتائج للعلم لم تكن مكتملة بعد ، مما جعل بعض العقول تستنتج خطأ عدم وجود الله ، غير أن وجود الله خالق هذا الكون لا يمكن إنكاره ، كما لا يمكن نفيه بالعلم ، لأنه الحقيقة الأبدية والمطلقة في الكون .

ويضيف توفيق الحكيم : إني لا أعتقد أن هناك أي تناقض بين العلم والدين ، فهما في علاقة أحدهما بالآخر ، كما رد عالم الفيزياء الكبير « الفريد كاستلر » الحائز على جائزة نوبل عن أبحاثه في المادة والضوء بحيران متكاملان وليسا متعارضين ، فالعلم والدين كل منهما يحدد طريقه طبقا لخطة مختلفة في مجال النشاط الإنساني العام ، فالعلم يحاكم الظواهر ويبدأ دراسة الوقائع المتراكمة أمام حواسنا ، أما الدين فمجاله الإيمان ، وعلى ذلك فإني أعتقد أن الدين يمكن أن يرسخ ويتدعم مع التقدم المتصل الذي يحققه العلم في كل مجال ، إذا ظهرت اجتهادات جديدة كما قلت ، لتوائم بين المعتقدات الدينية والحقائق العلمية

ويستطرد قائلا : إن هذه قضية بالغة الأهمية والخطورة ، ويجب أن تكون في قائمة المسائل المتعلقة بسنة ٢٠٠٠ ، ويجب أن يبدأ أصحاب الفكر والرأي بدئوهم ، لأنها تمس صميم وجدان وضمير الإنسان

* * *

وتروح لمحة توفيق الحكيم تصفي دائما على الحديث طابعا مميزا من البهجة والسعادة

حدثني مرة عن قصته مع الخمر ، ولماذا يكن له كل هذه الأنفة الشديدة ، حتى إنه الخمر وردا في كثير من كتاباته ، وأطلق اسمه على بعض كتبه . لقد تخيلت نفسي واقفا أمام عمدل فني رائع ، أو قدم في مسرحية أو تمثيلية أو فيلم سينمائي لكان من أبرع الأعمال الكوميدية الساخرة

وكثيرا ما كان توفيق الحكيم – على سبيل المداعبة – يتهم أنيس منصور بالبخل ، وكنت أؤكد له أني أعمل معه عن قرب ولم أحس فيه هذه الصفة أو حتى بعض ملامحها ، فكثيرا ما دعا أسرة تحرير الهلال إلى حفل غداء أو عشاء في أحد الأماكن العامة الراقية ، وعلى الفور كان يبادرني توفيق الحكيم قائلا : أبدا إني لم أره إلا مدعوا فقط ، ولم أره داعيا على الإطلاق

ومنذ أيام فاجأني توفيق الحكيم قائلا : أريد أن أؤكد لك صحة قولي . هل تصدق أني وجدت اسم أنيس منصور في كتاب الخلاء للجاحظ !

قلت له : وهل كان أنيس منصور قد ولد أيام الجاحظ حتى يعرفه ويكتب عنه ضمن خلاء كتابه الشهير

قال توفيق الحكيم : إني أطلق هذه الأيام كتاب الخلاء للجاحظ ، ولقد وجدت فيه اسم أحد هؤلاء البخلاء ، ولقد تمدس الاسم الأول ولم أستطع أن أتبينه تماما ، وبقي الاسم الثاني وهو « منصور » ، ولذلك فإني أرجوك أن تبلغ « أنيس منصور » ضرورة عمل حفل غداء أو عشاء فاخر تأكيدا لكرمه ، وإلا كتبت اسمه ضمن خلاء الجاحظ

وضحكنا كثيرا

ولم يتوقف الحوار .

يبقى دائما توفيق الحكيم واحة خضراء نهرع إليها النفس من وقت لآخر ، بعد رحلة قاسية وسط صخور الحياة ورمالها المتحركة ، وجزيرة أمان يستقر على صدرها العقل ، وينطلق من فوقها الفكر متأملا متجددا إلى كل اتجاه

جزيرة حب راسخة وسط بحر الحياة العاتي المتلاطم الأمواج . هكذا دائما توفيق الحكيم .